الافتتاحيّة

رئيسة التحرير: أ. د. دلال عبّاس

هذه المجلّة، مجلّة «الدراسات الأدبيّة» كما ذكرنا في افتتاحيّة العدد الأوّل بعد المئة، هي وليدة منبر اللغة الفارسيّة وآدابها في الجامعة اللبنانيّة، الذي تأسّس في بداية العام الجامعيّ ١٩٥٦-١٩٥٧م، من ضمن برنامج التعاون العلميّ بين جامعة طهران والجامعة اللبنانيّة؛ ففي أواخر العام ١٩٥٩أصدرَ منبرُ اللغة الفارسيّة مجلّةَ «الدراسات الأدبيّة»، وجاء في افتتاحيّة أوّل أعدادها بقلم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور محمّد محمّدي، أنّ الهدف من إنشاء هذه المجلّة باللغتَين العربيّة والفارسيّة أن تكون واسطةً للتعارف وتبادل المعلومات بين علماء اللغتَين.

بنتِ المجلّةُ جسرَ تواصلٍ بين العرب والإيرانيّين وفتحتِ الأبواب وشرّعتها لدراسة التأثّر والتأثير المتبادلَين بين اللغة العربيّة وآدابها واللغةِ الفارسيّة وآدابها، وحدود تعاونهما وتلاقحهما قديمًا وحديثًا، ودراسة الآثار الأدبيّة والفكريّة والفنيّة التي كانت نتيجة ذلك التعاون والتلاقح في كلٍّ منهما...

في نهاية العام ١٩٦٧م، ساءت العلاقاتُ بين إيران ولبنان، وعاد الدكتور محمّدي إلى إيران، وتوقّفتِ المجلّة عن الصدور... تولّى أستاذنا الدكتور أحمد لواساني إدارة قسم اللغة الفارسيّة بعد سفر الدكتور محمّدي، لكنّه لم يتمكّن من إصدار المجلّة بسبب

توقّف الدعم المالي بعد قطع العلاقات بين البلدين، ثمّ بسبب اندلاع الحرب الأهليّة في لبنان...

بعد انتصار الثورة في إيران وقيام الجمهوريّة الإسلاميّة، سعى الدكتور أحمد لواساني والدكتور فكتور الكك جاهدَين لإعادة إحياء مجلّة الدراسات الأدبيّة؛ وفي العام ٢٠٠٠م، عادتِ المجلّة إلى الصدور برئاسة الدكتور فكتور الكك، ودعمِ المستشاريّة الثقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة.

في العام ٢٠٠٤م، أُنشئ قسم اللغة الفارسيّة وآدابها في الجامعة اللبنانيّة، في الفرع الأوّل في بيروت، بناءً على وثيقة تعاون بين الجامعة اللبنانيّة وجامعة مشهد، واستمرّ صدور المجلّة بدعم من الجامعتَين والمستشاريّة الثقافيّة الإيرانيّة إلى منتصف العام ٢٠١٦م؛ وبعد وفاة رئيس التحرير الأستاذ الدكتور فكتور الكك في آذار من العام ٢٠١٧م أصدرتها جامعة مشهد إلكترونيًّا حتّى العدد مئة؛ وفي ربيع العام ٢٠٢١ صدر العدد الأوّل بعد المئة بدعم من المستشاريّة الثقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة في لبنان، ولا يزال هذا الدعم مستمرًّا؛ وعادت مجلّة «الدراسات الأدبيّة» إلى الساحة الثقافيّة مرجِعًا أدبيًّا وفكريًّا للباحثين المعنيّين بدراسة التأثّر والتأثير المتبادلَين بين اللغة الفارسيّة وآدابِها واللغةِ العربيّةِ وآدابها، من خلال دراسات تدور على محاور الأدب المقارن، تتناول التفاعل بين الثقافتَين العربيّة والفارسيّة وبينهما وبين الآداب العالميّة...

صحيح أنّ اللغتين العربيّة والفارسيّة لا تنتميان إلى أصلٍ واحد، لكنّ ما بينهما وبين أدبَيهما من الوشائج والقربى أوثقُ وأعمقُ بكثير ممّا بين أي لغتَين أو أدبَين أو ثقافتَين على وجه الأرض. هذه العَلاقة تعود إلى ما قبل الإسلام، وهذا بيّنٌ من المفردات الفارسيّة المعرّبة الموجودة في الشعر الجاهليّ، [الأعشى أنموذجًا]، وفي النصّ القرآنيّ، وفي الألفاظ المشتركة بين اللغتَين العربيّة والفارسيّة الفهلويّة. هذه العَلاقة أخذت تتعمّق تدريجيًا، بعد أن تقدّم المسلمون للمرّة الأولى في عهد الخليفة الثاني إلى العراق وإيران، وأسلم من أسلم من الفرس طوعًا، وانضمّوا إلى الجيش الإسلاميّ، وأقرَّ المسلمون السكّانَ في أرضهم وأمّنوهم على أنفسهم وأموالهم، ثمَّ ما كان من هجرات العرب

إلى هذه المناطق، واستقرارهم فيها. كلّ ذلك أدّى إلى أن يمتزج السكّان الأصليّون والوافدون، وأنّ يُقارب بعضُهم بعضًا، وأن يُصهِرَ من أسلم منهم، إلى من وفد عليهم، وأن يكون هنالك هذا الاختلاط، الذي كان من ثمراته جيلٌ جديدٌ لفَّته الحياة الإسلاميّة الجديدة بما كان من طوابعها وسماتها.

هناك عاملان اثنان سهّلا على العربيّة التغلغل في بلاد فارس في أثناء الفتوح وبعدها:

أوّلهما الدين: فقد كان الدين الإسلاميّ عربيّ اللغة، وهو من غير شكّ يقتضي من أتباعه المؤمنين به المتحمّسين له، والمندفعين في سبيله، في المرحلة الأولى أن يتعرّفوا هذه اللغةَ تعرّفًا عميقًا أو تعرّفًا قريبًا، ولكنّه في كلّ الأحوال مؤالفةٌ للّغة واطمئنانٌ إليها، وتمهيدٌ لغَزاتِها النفسية.

أمّا العامل الثاني فكان تجاور اللغتين العربيّة والفارسيّة كلّ ذلك الأمد الذي تجاور فيه العرب والفرس في أرض العراق قبل الإسلام، لا سيّما في زمن المناذرة؛ ولقد كان ذلك التجاور سبيلًا إلى أنواع من الصلات اللغويّة: صلة التعاون وصلة التبادل وصلة الاقتباس؛ وكانت هنالك فئة من الفرس والعرب تتقن هذه اللغة وتلك؛ بل إنّ في روايات الفتوح ما يدلّ على أنّ بعضَ القادة الفرس الذين تولّوا حرب العرب كانوا يتكلّمون العربيّة ويقولون بها الشعر.

أدّى هذان العاملان: العامل الدينيّ الذي جاء مع الإسلام، وعامل التقارب والجوار والصلات الذي كان قبل الإسلام، فضلًا عن عمليّة الترجمة من الفارسيّة بالعربيّة، ثمّ من العربيّة بالفارسيّة، إلى تثاقفٍ وتمازجٍ بين اللغتين وما كُتب وقيلَ بهما، لا مثيل له ولا نظير على الإطلاق، وإذا كان المشهور المتداول أنّ عمليّة الترجمة من الفارسيّة بالعربيّة قد جرت في العصر العبّاسيّ، فإنّ خطواتها الأولى قد بدأت قبل ذلك: لقد اقتبس المسلمون نظامهم الإداريّ من النظام الإداريّ الإيرانيّ، إذ نُظمت الدفاتر منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بأسلوب الدفاتر والدواوين الإيرانيّة القديمة، وكانت اللغة الديوانيّة أحيانًا لغةً فارسيّة، وفضّل المسلمون من الفرس في ما بعد أن ينقلوها إلى العربيّة بأنفسهم، ويذكر ابن النديم أنّ «الديوان» نُقل إلى العربيّة في زمن

الحجّاج، والذي نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم؛ كما ذُكر كذلك أنّ كتابًا كان موجودًا في مكتبة هشام بن عبد الملك، موضوعُه تاريخُ الفرس وسياستُهم، مترجمٌ من الفارسيّة بالعربيّة، إلاّ أنّ العبّاسيّين هم الذين سخّروا كلّ قدراتهم في استقطاب الثقافات المختلفة اليونانيّة والهنديّة والفارسيّة، وممّا لا شكّ فيه أنّ أمواج الترجمة من الفارسيّة، كانت الجسرَ الذي عبرت من خلاله ثقافاتُ الأمم المختلفة التي انصهرت في الدولة الإسلاميّة، وأغنت الثقافة الإسلاميّة، وذلك لعناية خلفاء بني العبّاس ووزرائهم بعمليّة الترجمة، وما أبدوه من اهتمام بيّنٍ بالحركة العلميّة، وتشجيعهم العلماء والمترجمين، وهكذا تحوّلت ثقافات فارس والهند واليونان إلى ثقافة العرب المسلمين وزوّدتها بأزوادٍ وعناصرَ لم يكن لها بها عهدٌ من قبل ... والمعروف أنّ حركة النقل قد بلغت ذروتها في عهد المأمون الذي وسّع مدرسة الترجمة في بغداد، فصارت تُعرف بـ «دار الحكمة»، وألحق بها مكتبةً ومرصدًا، وجاء بعددٍ كبيرٍ من العلماء الذين يُتقنون العربيّة واللغات الأعجميّة، فجعل عليهم شيخًا رئيسًا، يختار الكتب، ويُعيد النظر في ترجمتها، وكان حنين بن إسحاق من أشهر الذين تولّوا هذا المنصب.

كانت الكتب التي موضوعها السياسة الملوكيّة عند الفرس أولى الكتب التي تُرجمت من الآثار الأجنبيّة في الأدب والسياسة، وأوّل المترجمين في عهد أبي جعفر المنصور كان ابنَ المُقفّع (روزبه بن داذويه)، الذي ترجم بالعربيّة منطق أرسطو الذي كان منقولاً من قبل إلى الفارسيّة، وكليلة ودمنة الذي كان منقولاً إلى الفارسيّة البهلويّة عن الهنديّة... في هذا السياق لا بدّ لنا من ذكر الدور الذي أدّته مدرسة جنديسابور وعلماؤها في تلك المرحلة التاريخيّة. ومن المرجّح أنّ اللغة العربيّة كانت معروفة في جنديسابور، قبل فتح العرب المدينة لقربها من الحيرَة المدينة العربيّة المشهورة. في كلّ الأحوال، كان الأطباء في هذه المدرسة يستخدمون اللغتين العربيّة والفارسيّة في العصر العباسيّ، كما يشهد على ذلك ما يرويه ابن أبي أصيبعة عن جورجيوس رئيس أطباء جنديسابور، عندما التقى بالخليفة المأمون، وخاطبه باللغة العربيّة وباللغة الفارسيّة. تأثّر أدباء العربيّة شعراء وكتابًا في العصور العبّاسيّة بالخصائص الفنيّة للحِكَم والنصائح

والوصايا المترجمة من الفارسيّة. ولمّا ضاع أصل هذه الحكم، عاد الكتّاب والشعراء الإيرانيّون بعد القرن الرابع الهجريّ ونقلوها إلى الفارسيّة.

أمّا الترجمة من العربيّة بالفارسيّة فقد بدأت عمليًّا في القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ، في أثناء حكم السامانيّين (٢٦١-٣٨٤هـ)، أهمّ الحكومات التي استقلّت عن العباسيّين عمليًّا، وظلّت محافظة على سلطة الخليفة العباسيّ معنويًّا، وجعلت الفارسيّة لغةَ الدولةِ الرسميّةَ بدلًا من العربيّة، يكتبون ويقرؤون بها الأحكام والمناشير. لكنّ ذلك لا يعني أنّ اللغة العربيّة قد أُهملَت، أو أصابها الفتور والضعف، فقد كان السامانيّون ومعاصروهم من العلماء والشعراء والأدباء مؤمنين أنّ العربيّة لغةُ الدين، لذلك ظلّتِ العربيّةُ في هذا العصر لغةَ الثقافة ولغةَ العلم في تلك الديار. كما كانت تُكتب بها الرسائل والكتب المتبادلة بين البلاط السامانيّ والخلافة في بغداد؛ أمّا ترجمة الكتب بالفارسيّة فكان الهدف منها جعل العلوم في متناول عامّة الناس، وأوّل كتابٍ ترجم من العربيّة بالفارسيّة، هو كتاب كليلة ودمنة، الذي كان قد نُقل من اللغة الهنديّة إلى اللغة البهلويّة، ومنها إلى السريانيّة، ثم إلى العربيّة وفي النهاية تُرجم بالفارسيّة الدّرِّيّة، كما نظمه الرودكيّ شعرًا. وأشار إليه الفردوسي في الشاهنامة... وبعده تُرجم كتاب التاريخ لمحمّد بن جرير الطبريّ ليشترك في قراءته ومعرفته السلطان وعامّة الرعيّة.

وتُرجم بالفارسيّة كتاب السواد الأعظم في الفقه الحنفيّ، ليستفيد منه عامّة الناس ويدافعوا عن المذهب، كما تُرجمت بالفارسيّة كتبُ الصيدلة المكتوبة بالعربيّة ليفهمَها العامّة: منها كتاب الأبنية عن حقائق الأدوية... وغير ذلك من الكتب العلميّة التي يحتاجها عامّة الناس...

ومن المهم أنْ نشير إلى أنّ اللّغة العربيّة ظلّت اللّغةَ العلميّة في الدولة السامانيّة، ومن ثمَّ في ظلّ الحكومات التي أعقبتها، أي أنّ الكتابة بالفارسيَّة الدريَّة المكتوبة بالخطّ العربيّ منذ العصر السامانيّ وما بعده، لم تُلغِ دورَ العربيّة أو تقضي عليها، لأنّها لغةُ الدين، وظلَّ الأدباء والمؤلّفون والشعراء والفلاسفة يجيدون اللغتين، منهم من يكتب بهما معًا كابن سينا والبيرونيّ، ومنهم من يكتب بالعربيّة وهو يجيد الفارسيّة

كالثعالبيَّ، وبديع الزمان الهمذانيّ، وأبي الحسن العامريّ، ومنهم من يكتب بالفارسيّة وهو يُجيد العربيّة كعمر الخيّام النيسابوريّ، وظلَّت العربيّة في إيران لغةَ الثقافةِ العلميّة والدينيّة والأدبيّة. وقد توكّأت الحركة الأدبيّة الناهضة على تراث العربيّة النثريّ والشعريّ، كما يتبيّن من مواضيع الشعر في هذا العصر ومن لغته، وقد وصلتنا نتفٌ من ترجماتٍ للشعر العربيّ قام بها الشعراء الفرس، نجد ذكرها أو الإشارة إليها في كتب التراجم وفي المجموعات الشعريّة، منها على سبيل المثال ترجمة الرودكيّ (المتوفَّى سنة ٣٢٩هـ/٩٤٣م) أبياتًا من شعر ابن الروميّ ومن بعدُ ترجمة الأمير طاهِر بنِ الفضلِ الصاغانيّ (المتوفَّى سنة ٣٨١هـ/٩٩١م) أشعارًا أخرى لابن الروميّ في وصفِ قوسِ القُزح، وغير ذلك الكثير...

ولا بدّ من التذكير بالدور الذي أدّاه العلماء الإيرانيّون في العصور العبّاسيّة وما تلاها، في مختلف العلوم: الحديث، الفقه، القراءة والتفسير، وفي الفنون والآداب: أي النحو والصرف واللغة والبلاغة والشعر والتاريخ، وفي الفلسفة وعلم الفلك والرياضيّات والطبّ والصيدلة وغيرها، ورفدوا الحضارة الإسلاميّةَ- العربيّةَ اللّغةِ، بما جعلها في يوم من الأيّام أمَّ الحضارة الإنسانيّة قاطبةً، وهذا أنصعُ دليلٍ على هذا التعاون والتآخي بين العرب والإيرانيّين... من دون أن نُغفل العلاقات الثقافيّة التي عادت وتوثّقت بين إيران و العرب [من خلال علماء جبل عامل] منذ العهد الصفويّ وحتّى الآن؛ والمقصود تلك العلاقات الدينيّة- الثقافيّة والسياسيّة التي أدّت إلى تأثّر وتأثير متبادلَيْن على الصعدِ كافّةً، وذلك في مرحلتين:

في المرحلة الأولى كان التأثير من جبل عامل باتجاه إيران في زمن الصفويّين وقُبيْل عهدهم بقليل. وفي المرحلة الثانية من إيران باتجاه جبل عامل قُبيل الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة وبعد نجاحها.

في المرحلة الأولى: ساهم علماءُ جبل عامل -في المرحلة التأسيسيّة للدولة الصفويّة- في البناء الفكريّ لهذه الدولة التي أعلنت التشيّع مذهبًا رسميًّا لها، وكادت تتجه إلى الغلوّ فيه، لو لم يلجم العلماءُ العامليّون اندفاع الساسةِ الصفويّين، ويصحّحوا المسار

الفكريّ للدولة بحماية المذهب الاثني عشريّ من تحريفات غلاة الصوفيّة الطرائقيّين، ويمتدّ تأثيرهم من الدين إلى السياسة والثقافة.

في المرحلة الثانية: قام العلماء الإيرانيّون قُبيل نجاح الثورة الإسلاميّة وبعدها بدورٍ مهمٍّ في تحريك الجمود المخيّم على الأفكار في جبل عامل، هذا الدور بدأ منذ ستينيّات القرن العشرين، ووصل إلى أوجه بعد انتصار الثورة.

إنّ الإيرانيين والعرب الذين صنعوا معًا حضارةً شعّت أنوارُها على العالم الذي كان غارقًا حينها في الظلمة، يمكنهم أن يستعيدوا هذا الدور اليوم، وأن يتكاتفوا لإعادة صوغ الحضارة الإنسانيّة من جديد، من خلال الانفتاح الفكريّ بعضهم على البعض الآخر، وتفعيل دور الترجمة ومأسَسَتِها...

بيروت، أيّار- مايو ٢٠٢٣